التعليم في اهتمامات الأمير عبد القادر

Education in the interests of Emir Abdelkader

محمد دراعو [1]، معمر لعايب [*2]
[1] دكتور، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان /الجزائر، pctowntlm@gmail.com
[2] أستاذ دكتور، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان/الجزائر، mamar.laib@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2021/11/07 تاريخ القبول: 2024/09/25 تاريخ النشر: 2024/12/18

ملخص:

تقدم هذه الدراسة أحد أوجه المساهمة الثقافية للأمير عبد القادر، وذلك بإبراز البيئة الحاضنة للعلم والمعرفة والنبوغ بمعهد القيطنة الذي يشرف عليه والده، وجد هذا التكوين الثري والمتنوع من فطاحل علماء زمانه أرضية خصبة في نفسية وعقلية الأمير عبد القادر أورقت علما وأدبا. وهذا الإشعاع العلمي والثقافي أزاح تلك الصورة النمطية بأن بلاد المغرب لا مدنية لهم ولا ثقافة خصوصا لدى المؤرخين الغربيين وحتى المشارقة. واستثمار هذا الجهد المعرفي في إرساء هياكل تربوية ومناهج دراسية مبتكرة لدولته ولا تتركه للمبادرات الفردية فقط. وإبراز مواطن الخلل بعدم إنشاء هيئة المترجمين العرب ينذر لها كبار العلماء تفرضها حتمية المواجهة حربا وسلما مع الفرنسيين. ووقفنا على تجليات هذه الرسالة التعليمية التي تَرجَمتها مؤلفاتُ الأمير شعرا ونثرا، وأبانت في كثير من انعطافاتها عن مَسْلك علمي دقيق ورؤية تجديدية، وسجالات فكرية وحضارية شغلت المسلمين والمسحيين.

الكلمات المفتاحية: الأمير عبد القادر، التعليم، الهياكل التربوية، الرسالة التعليمية في مؤلفات الأمير.

Abstract:

This study presents one of the aspects of the cultural contribution of Emir Abdelkader, by highlighting the environment that embraces science, knowledge and genius at the Guetna Institute, which is supervised by his father. This scientific and cultural radiation removed the stereotype that the Maghreb had no civilization or culture, especially among Western and

*المؤلف المرسل: محمد دراعو، الإيميل: pctowntlm@gmail.com

even Eastern historians. And investing this knowledge effort in establishing educational structures and innovative curricula for his country and not leaving it to individual initiatives only. And highlighting the shortcomings by not establishing the Arab Translators Authority warns it of the senior scholars imposed by the inevitability of confrontation war and peace with the French. And we have taken note of the manifestations of this educational message, which were translated by the Emir's writings in poetry and prose, and in many of its turns, it showed an accurate scientific path, a renewal vision, and intellectual and civilized debates that preoccupied Muslims and Christians.

Keywords: Emir Abdelkader, Education, Educational Structures, Educational message in the Emir's writings

Résumé :

Cette étude présente un aspect de la contribution culturelle de l'Émir Abdelkader, en mettant en évidence l'environnement incubateur de science, de savoir et de génie à l'Institut de Guitna, supervisé par son père, cette formation riche et diversifiée d'érudits exceptionnels de son temps a trouvé un terrain fertile dans la psychologie et la mentalité de l'Émir Abdelkader, ce qui lui a donné des connaissances et de bonnes mœurs. Ce rayonnement scientifique et culturel a fait disparaître l'image stéréotypée selon laquelle les pays du Maghreb n'ont ni civilisation ni culture, notamment chez les historiens occidentaux et même les orientaux. Ainsi que l'investissement de cet effort de connaissances dans la création de structures et de programmes éducatifs innovants pour son pays et ne pas le laisser aux seules initiatives individuelles. Souligner les lacunes de la non-création d'un corps de traducteurs arabes constitue un avertissement adressé aux chercheurs de haut niveau, imposé par l'inévitabilité d'une confrontation en temps de guerre et de paix avec les Français. Nous avons vu les manifestations de ce message éducatif, qui a été traduit en poésie et en prose par l'Émir, et a révélé à maintes reprises un parcours scientifique précis, une vision renouvelée et des débats intellectuels et civilisationnels qui préoccupaient les musulmans et les chrétiens.

Mots-clés : l'Emir Abdelkader, éducation, structures éducatives, message éducatif dans les œuvres de l'Émir .

مقدمة:

يُعد الأمير عبد القادر إحدى الشخصيات الإسلامية الثلاث التي رسمت تاريخ القرن التاسع عشر إلى جانب محمد علي حاكم مصر والمجاهد القوقازي شاميل، بما مثله من ريادة على الصعيد العسكري والسياسي والتنظيمي والديبلوماسي وكذلك الثقافي. وقد غلَّبت معظم الدراسات جانبا من حياة الأمير العسكري والسياسي المحنك على حساب الأمير العالم والمعلم صاحب التأليف، أغلبها لم تَرِد إلا ضمن عناوين فرعية نذكر منها: أبو القاسم سعد الله في كتابه "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث" الفصل العاشر: الحياة الثقافية. وعبد الحميد زوزو "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر" المجموعة من الوثائق الخاصة بالتعليم تؤرخ فيها لوضعية التعليم الموروث عن العهد العثماني. ومن أبرز الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع نذكر: مقال الأستاذ أحمد بن داود: "المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر من خلال التعليم" المنشور في مجلة عصور الجديدة، العدد 10 والصادرة عن جامعة وهران. ومن الدراسات الفرنسية ايفون توران"Yvonne Turin"المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (1830-1880)" والتي وثقت ما تعرضت لها لشبكة التعليمية بكل مستوياتها من هدم ممنهج في هذه الفترة. وكذلك مقال مارسال اميريت Emerit Marcel "الوضعية الفكرية والمعنوية في الجزائر سنة 1830" يذكر بأنه في سنة 1840 التعليم منتشر بالجزائر أكثر منه في فرنسا.

لم تشغل الأمير رسالته الحربية التحريرية عن رسالته التعليمية حيث جعل من التعليم باعثا لروح اليقظة في الشعب للتحرّر من الاستعمار والجهل معا. وهناك عدة استفسارات تاريخية عرّجت عليها في ثنايا هذا البحث، فكانت كالتالي: ما مدى رسوخ الفعل التعليمي لدى الأمير؟ وكيف كان التعليم وخصوصياته في دولة الأمير؟ وماهية الرسالة التعليمية في مؤلفات الأمير؟ والحقيقة أن المقاومة العسكرية وإن أخذت شطرا من عمره فإن المقاومة الثقافية لسنوات الدراسة والبحث طيلة حياته الشاقة والمضطربة منذ كان شابا يافعا إلى أن صار أميرا على قومه، فأسيرا عند عدوه، ثم منفيا بعيدا عن وطنه، قد ترجمت بصدق هذا الجهد او الجهاد المعرفي في مؤلفات الأمير المنظوم والمنثور.

1. رسوخ الفعل التعليمي لدى الأمير عبد القادر

اجتمعت عدة عوامل رسَّخت الفعل التعليمي لدى الأمير عبد القادر، نشأته في ظل زاوية أجداده المرابطين على رأسها أبوه محي الدين، ملكت القلوب والعقول معا وأظلت كل بيلك وهران علما وكرما. (Bellemare, 1863, pp. 11-12) لكن لا يهم عظم النسب وقد يكون حملا على صاحبه منه مفخرة له، فلا يكفي أن تطلب من أنت؟ بل ما أنت عليه؟ تستقصي سيرة حياة الإنسان، وأفعاله، وشجاعته، وخصاله.(Étienne, 1994, p. 11) فهم ورثوا النسب الشريف، والأنبياء ورَّثُوا العِلْمَ مَن أخذه أخذ بحظٍّ وافِرٍ (البخاري، 2003، صفحة 28) فتوارثوا العلم كابِراً عَن كابر فآل عبد القادر

استحقوا هذا الشرف بعد أن جعلوا من طلب العلم وتعليمه رسالة ربانية فكانت قريتهم مركز اشعاع علمي وثقافي تَصَدَّره كوكبة من العلماء.

تدرَّج الأمير عبد القادر في تعليمه على كوكبة من العلماء المشهود لهم، وكل عالم يُعتبر تاجا على رأس فنِّه وله سنَد فيه، مع ذلك يعقِّب في مذكراته بقوله: ولا يذهب الوهم بمن وقف على هذه الأسانيد (العلماء ومشايخهم)فيعتقد أننا لم نأخذ العلم إلا من بعيد، بل وطننا الغريسي محطَّ علم ومحلَّ تعلم وتعليم، ولو تتَّبعْنا ما نعلم من عدد العلماء بأوطاننا وما جمعه الناس قديما وحديثا لضاقت به الطروس (الكتب).(الأمير عبد القادر، مذكرات، 2007، الصفحات 57،53-60) والاهتمام بذكر الأسانيد كان علماء ذلك العهد يعطونه أهمية كبرى إذ فيه الدليل القاطع على التبادل الثقافي – يتبادلون الاجازات والتآليف- بين علماء مختلف البلدان الإسلامية وتمتين الصِّلة بينهم وتكوين رأي عام قويّ يقف المواقف الحاسمة في وجه كل من حاول المسَّ أو تغيير أحكام الشرع أو التلاعب بالدِّين وإهانة أهله.(البوعبدلي، أضواء على تاريخ حياة الأمير عبد القادر قبل توليته من خلال مذكراته التي سجلها في قصر أمبواز، 1975، صفحة 58)وهي عكس الصورة النمطية التي ارتسمت في أذهان القريب والبعيد مشارقة وغربيين أن بلاد المغرب عبارة عن قبائل بدوية أفظاظ لا مدنية لهم ولا ثقافة. ووثق هذا الإشعاع العلمي والثقافي العالم المحدِّث الشيخ محمد بن معروف الونشريسي وهو يرثي شيخه محي الدين ضمها الفنون العديدة التي كان يدرسها بمعهد القيطنة. (البوعبدلي، وثائق أصيلة تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر، 1983، الصفحات 142-143)

وقد وجد هذا التكوين الثري والمتنوع من فطاحل علماء زمانه أرضية خصبة في نفسية وعقلية الأمير عبد القادر أورقت علما وأدبا جما، تحت أعين أبيه الذي استثمر فيه كل جهده التربوي، كأحسن ما يكون العربي، فنشأ محبا للقراءة لدرجة أن مكتبة صغيرة تتبعه في حِلِّه وترحاله، صقلت شخصيتَه العلمية والفكرية والتأمُّلية.(Desjobert, La Question d'Alger, 1837, pp. 308-309) ومنذ كان في حال طفولته يافعا يتخلَّق بالأخلاق الجميلة والأوصاف النبيلة فاستجمع خصال الكبار المكلفين في تعلُّم دعائم الإسلام، فنّا بعد فنّ، فأخذ التفسير والحديث والفقه وأصول الدين، وأخذ أيضا النحو وجوهرة البيان والمنطق عن بعض علماء وهران.(الأمير عبد القادر، مذكرات، 2007، الصفحات 50-51)

ففي سنة 1822 أخذ عن سي أحمد بن طاهر الريفي بأرزو القواعد وفقه اللغة لفائدتهما الجلية في فهم النصوص المقدّسة (القرآن والسنة)، وأيضا الفلسفة، واستهوَتْه بصورة خاصة الجغرافيا، ثم الفلك، وكذلك تاريخ الشعوب المسيحية، وعلوم أخرى مثل علم الأدوية، وأوعز إلى طالبه الشاب عبد القادر لما رأى من نُبوغه، ليترك قليلا الأحكام الدينية وينصرف إلى الأوضاع الحالية، محذِّرا إياه أن الأوروبيين أسَّسوا لعلم جديد يسميه "الاستراتيجية".(إتيين، 2001، الصفحات 60-

62)ويبدو أن هذا العالم كان يراقب التطوُّرات الكبرى التي حدثت بالضِّفة الشمالية والتي سرعان ما سترمي بظلالها على الضفَّة الجنوبية.

ثم يقصد وهران ليُمَتِّن ثقافته الأدبية والدينية في مدرسة السي أحمد بن خوجة الذي يُعتبَر أحد كبار مثقفي الغرب، ونبَّه محي الدين ولدَه عند سفره، بأنْ لا يكون له إلاَّ هدف واحد: التعلم، التعلم، التعلم، فالبشرية تضُم زُمرتَيْن من الناس: عالم وطالب علم وماعدا هاتين الزمرتين لا جدوى منه.(إتيين، 2001، صفحة 67،70)وفي رحلة الحجّ لم تَخْلُ أيَّة محلَّة نزل بها (تونس، الإسكندرية، القاهرة، مكة والمدينة، ثم القدس ودمشق وبغداد)، ذهابا وإيابا من مقصدَيْن متلازمَيْن الأخذُ عن علمائها والتبرُّكُ بأوليائها الصالحين.(الأمير عبد القادر، مذكرات، 2007، الصفحات 107،109-111،128-137)وحتى أثناء احتجازهما بوهران من طرف الباي قبل أن يسيرا إلى الحجِّ لم يحتَجّ محي الدين سِوى عن منع ابنه عبد القادر أخذ حظِّه من العلم، فكان عبد القادر يقضي ساعات طويلة مع الشيخ أحمد بن التهامي ابن مفتي وهران الأكبر، ثم ارتبط بصداقة مع ابن عمته الذي سيغْدو فيما بعد قائدَ معسكره، وسكرتيره ونسيبه بالمصاهرة وهو مصطفى بن التهامي، لكن الشابَّيْن الذيْن كانا يدرسان سويَّة لم يكونا يَعْلمان إلى أيِّ حدٍّ رَبَطَت قدَرَيْهما يدُ الله.(إتيين، 2001، الصفحات 92-93)والغريب في هذه الشخصية أن أباه محي الدين لم يكن إلا موجهاً ومسدداً وممتحناً لما كانت علَّمَتْه أمُّه لالا زهرة من القرآن والمحفوظات...الخ، لكن الشابّ لا يرْتَوي فهو دائم السُّؤال والاعتراض حول أقلِّ الأشياء، حول كلِّ شيء، وحول لا شيء، فالعلم صندوق مفتاحه السؤال.(إتيين، 2001، صفحة 60،99،104)وبالتَّالي صُقِلَت شخصية الأمير بقوَّةٍ عقلية وروحية، تَتَّقِد ذكاء وصرامة ملحوظة، وملكة خطابية تلهب المشاعر وتسلب الألباب ومن المستحيل مقاومتها، يكفي أن يقوم خطيبا ليفرض إرادته ويأسر القلوب.(Pellissier de Reynaud, 1854, p. 265)

2. التعليم في دولة الأمير عبد القادر

1.2 الجهود التنظيمية

إن الدولة التي ابتعثها الأمير عبد القادر وإن ظهرت بعض تجلِّياتها السياسية والعسكرية فإنَّ لها مظاهر أخرى اقتصادية واجتماعية وتعليمية، قعَّد بذلك لفلسفة المقاومة في فهْم المجرى العام للحوادث التي كان يعيشها وطنه، بمجابهة قوَّة ضاغطة استعمارية بقوَّة مقاوِمَة لها، تَتَّخِذ شكلَيْن؛ الصِّدام المسلَّح والثقافي. فلم تكن مقاومته لتُهمِل أيَّ شكل من أشكال المقاومة التي أرساها لخطِّه الجهادي لذا نراه يُولي أهمِّية قصوى للجُهد التعليمي الثقافي، كوْنُه أهمَّ مفصل لتَجَذُّر المقاومة واكتسابها مناعة لدَيْمومَتها، ويحافظ على الهويَّة العربيَّة الإسلامية أمام هذا الزَّحف الاستعماري. فإرْساؤه لمؤَسَّسات الدولة الجزائرية يقتضي وجود قطاع ثقافي ومؤسسات تعليمية يستفيد منها الشعب الجزائري. (فغرور وآخرون، 2016، صفحة 300)

لم تشغل الأميرَ عبد القادر رسالتُه الحربية التحريرية على أنْ ينَظِّم البلاد إداريا ويبُثَّ في الشَّعب روح التحرُّر من الجهل، كما بَعث فيه حماسة التحرُّر من الاستعمار. حقَّق الأمير مكسبا استراتيجيا–معاهدة تافنة-سَمَح له بتأسيس دولة منظمة تَشْمَل ثُلُثَي البلاد الجزائرية، كما حصل بمقتضى بنودها على حقِّ السيادة في إطار ضمانات الشرعية الدولية.(سعيدوني، 2012، صفحة 194) منْ أجْل إيقاظ الشعور الوطني للعرب وتوحيده وتوجيهه، فقد أسَّس منذ البداية نظاما للتعليم العام بين جميع القبائل، لذا فُتحت المدارس في المدن وبين القبائل، وفي الزَّوايا والمساجد وخُصِّصَت لهم رواتب حسب درجاتهم، ويقول عن ذلك الأمير: "وعفوت أكثرَ مِنْ مرَّة على محكوم عليهم لمُجَرَّد أنَّهم طلبة، وبَذلْت أقصى الجهود في المحافظة على الكتب والمخطوطات من الضياع، وشيئا فشيئا جَمعْت مجموعة من هذه المخطوطات ووضعتها في أماكِنَ أمينَة في الزَّوايا والمساجد وأوْكلْتها إلى الطَّلبة الذين كانوا موضِع ثِقتي".(تشرشل، 2004، الصفحات 199-201)

ورَتَّب في سائر المدن والقرى علماءَ لتَدريسِ فنونِ العلمِ وعيَّن لهم مُرتَّبات على حسَبِ طبقاتهم وأَمَر بطلب العلم وباحترام أهله واسْتثْناهم من جميع المطالب الأميرية، فإذا حضر عندَه طالبُ عِلم يمتَحِنُه في الفنِّ الذي يتعاطاه فإنْ وجَدَه ناجحا فيه أكرمه وإلا أعرض عنه، فكان هذا سببا قويا للطلبة في الاجتهاد وحَصَل من ذلك نجاحٌ عظيم وانتشر العلم في جميع المقاطعات وأقبل الناس على تعليم أولادهم.(الحسني الجزائري م.، 1903، صفحة 302) والأساتذة يتَمَتَّعون بتقدير كبير ولهم أُجرَة مُعتَبَرة جدا، ولا يهْتَمّون بشؤون الحكم، لكن كان لهم دور كبير في خَلْق ما يُعرَف بوِحْدَة معنوية "Unité morale" أو نسيج لضمير جمعي يوحِّد المجتمع وإن كان متفرِّقا سياسيا. (Emerit, 1951, p. 177) وقد نجح الأمير في مسعاه إلى حد كبير، بشهادة العلماء والأعداء، في تشكيل ذاكرة جمعية جزائرية إسلامية.(عميراوي، 2005، صفحة 39)

وكان عبد القادر رجُلَ نهضة ونزعة ثورية، حيث قام بإرسال بعثات إلى أوروبا لكَسْب معارف فنية وعلمية، عبقريةُ هذا الرجل شملت جميع مناحي الحياة دقِّها وجليلها. (Desjobert, L'Algérie en 1838, 1838) يقول عنه بيليسي: أكبرُ حَرَج أوْقَعَنا فيه الأميرُ عبد القادر أنَّه حَشَرَنا في زاويَة اضطررنا أنْ نُمَثِّلَ كلَّ ما هو وحْشيٌّ وخراب، في حين كان هو يُمثِّل كلَّ ما هو قِيَم ونظم أخلاقية. (Desjobert, La Question d'Alger, 1837, pp. 309-310) لا تهرُه أوروبا إلا بقدْر ما يَأخُذ منها التطوُّر المادِّي وروح النِّظام وطُرُق التَّسْيير، في حين أبْدى التحفُّظ الثابت وَرَصانة العربي الأبيَّة على مَرْأى عجائب الحضارة المسيحية.(الساحلي، 2008، الصفحات 90-92)فالأمير رسم لنظام السياسة "أكمل نظام" من حيث الاستيعاب والاتساع ضِمْن نِطاقِ علاقةٍ تكامليَّة بين السيَّاسة والشريعة والتصوُّف، عدَّ العلمَ قوامُها ورأسُ حربَتِها.(بناني، 1986، صفحة 153)

فكلُّ ما فَعله الأميرُ كان متوافقا وتطبيقا للتربية التي وجَّهَه بها محيُ الدِّين، فكانت فِكرتُه في إنشاء دولةٍ مسلمةٍ وِفْق النموذج المؤرُوث عن الأقدمين، فواجِبُه كقائِدٍ وكمسلمٍ أنْ يَنْهض بالدِّين

والعِلم، لكي تَتَّقِد جَذْوَة الدِّين، التي يُمْكنُ بها مواجهة الغزاة، فأقام المرافق التي يُعَلَّم فيها الأولاد إقامة الصلاة وأهمَّ إرشادات القرآن الكريم إلى جانب القراءة والكتابة.(إتيين، 2001، صفحة 162)عمَل الأميرُ على تأسيس هياكل عِلمِية جديدة حين أوْكَلَ مثلا لشيخ الطريقة الرَّحمانية الاضطلاع بواجِب التربية والتعليم تحديدا نحو أبناء قريته، وتوسيع دائرتها، في حين كان هذا الأخير ينوي المشاركة في الجهاد.(القاسمي، 2011، صفحة 64)

2.2 مراحل التعليم

وقد كانت مراحل التعليم متوارثة عن العهد العثماني: الابتدائي في أربع سنوات تقريبا، يَتَعلَّم الطفل خلالها القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وفي كلِّ قريةٍ خيمةٌ تُدْعى الشريعَة يُشْرِف عليها مُؤدِّب يختارُه سكانُها. الثَّانوي بإمكان التلميذ في هذا الطَّوْر مُواصَلةَ تعليمِه مجَّانا في الجامع أو في مدرسة مُلْحَقة بالأوقاف، في النهاية يَنالُ الطَّالبُ إجازة مكتوبَة أو شفهيَّة من المُدرِّس، يتولَّى بها وظيفَة مؤدِّب أو كاتب، أمَّا العالي فالذي يَدْرُس بهذه المرحلة يُسمَّى عالما يتقاضى أجْرا من الأوقاف وتُعْطى بالزَّوايا وأهمّ الجوامع.(سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الاحتلال"، 1982، الصفحات 161-165)وعَمدَ لجعْل التعليم مجَّانيا وفي مُتناول الجميع -على نمط الدَّاخلي أو النِّصف داخلي المعروف اليوم-، وذلك بالتكفُّل التَّام بالطَّلبة، وحسب إدريس الجزائري فإنَّ الأميرَ أوَّلَ مَنْ أَدْخل نِظام الوجْبَة الغِذائية المدرسية، وهذا نظامٌ جديدٌ ومبتَكَرٌ في ذلك الوقت، ثُمَّ إعفاءُ الطَّلبةِ من الرُّسوم المختلفة.(بن داود، 2014، صفحة 221)وازْدادت العِنايةُ بالتعليم أكثرَ أيَّام السِّلم وخاصَّة بعد توقيع اتِّفاقية تافنة يوم 30 ماي 1837 حيث تفرَّغ لتقْوية دَولتِه، واسْتَقدم العلماء والمثقَّفين من الجهات البعيدة، وذلك ليس لتأطير المدارس التربويَّة فحسب، وإنَّما أيضا للتَّدريس في أوَّلِ مدرسة مهنيَّة في الجزائر، أسَّسها الأميرُ الذي جاء بالمعلِّمين من فرنسا (مارسيليا).(فغرور و آخرون، 2016، صفحة 301)ولم يتمكَّن مِن تحقيق حُلمِه في إقامة جامعة مغربية، فالمعركة سارت به إلى أماكنَ أكثر بُعدا.(إتيين، 2001، صفحة 169)

إنَّ ما كان يثيرُ الأمير ليس الفارق الثقافي وبالخصوص القِيم الرُّوحية بين العالم الإسلامي والغربي، ولكن فجوَة التكنولوجيا الصناعية، لذا كانت استراتيجيته منذ البداية انتقائية لا تهتمُّ بالإيديولوجيا ولكن بالتكنولوجيا.(Bahloul, 2011, p. 50)ومن هنا نستشفُّ رؤيتَه للتَّعليم وما كان يرْمي إليه، فَفضْلا عن العلوم الإنسانية والأدبية (قرآن، سيرة، حديث، فقه، نحو، لغة، تاريخ...الخ) التي هي الحصن المنيع للهويَّة الجزائرية العربية المسلمة، حاول تطْعيمَها بعلوم مهنيَّة أو بما يُعرَف "بالعلوم التجريبية" ليُواكبَ التطوُّر التكنولوجيَّ الحاصلَ في أوروبا خصوصا في مجال التكوينِ العسكريِّ العصري وتَصنيع مُختلف الأسلحة. ما يُميِّزُ تفكيرَ الأمير "النموذج الأميري" عن مثقفي عصره وسياسي زمانه، جهودُه تكبُّ في مشروع حضاري تجديدي، بتشييده نظام حكم جامع توافقيّ وصارم يتكفل بالشأن العام، والباعث لصياغة نظام به يقاوم وله يجاهد، في سياق المواجهة الجيوحضارية

بين الجزائريين وفلول قوة الغرب الزاحفة على فضاء العالم الإسلامي. (طيبي، 2000، الصفحات 60-62)

ويشير الجنرال فالازه Valaze في تقرير لجنة إفريقية "كان العرب كلهم تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، وكان في كل قرية مدرستان"، وأكَّدت ايفون تورن Y Turin فيما بعدُ أنَّ الغزو عطل تطوُّر الثقافة القائم عبْر تدمير شبكة كثيفة من المدارس القرآنية والمدارس العادية، والزَّوايا، والتي لم تُجَدَّد أبدا بعد ذلك، وكان عدد المثقفين في جيش إفريقيا الفرنسي أقلَّ منه بين جند الأمير.(إتيين، 2001، الصفحات 163-164)وحسب أوربان واستيرازيUrbain et Walsin Esterhazyأنَّ نِسبةَ الأميَّة في الجزائر أقلَّ بكثير ممَّا هي عليه في فرنسا (حيث تتجاوز في فرنسا 40%)، لكنَّ السلطات الفرنسية استحوذت على الحبوس "الأوقاف" المموِّل الرسميَّ للتعليم وشَرَّدت الطلبة والأساتذة عن المدارس والزَّوايا، ومع ذلك تجِدُ المؤرخ اميريت مارسال Emerit Marcel يخفِّفُها بعبارة "السلطات العسكرية الفرنسية فشلت في حماية الحبوس" ممَّن تحميها؟ ! إذا كانت هي أصلا من استَوْلت عليها، ويصف هذا الهَدْم التعليميَّ الذي لم يُبْقِ مؤسسة قائمة بعبارة مخفَّفة كذلك على نحو "ثمار تجربة قاسية". (Emerit, 1951, p. 177) هذا الهدْم المُنهج عبَّر عنه الدوق دومالDuc d'Aumaleفي تقرير له سنة 1848 عن التعليم لدى المسلمين، خلاصتُه أنَّه كان أحد الأسباب الرئيسية التي أَلْهَبَت مشاعرَ المقاومةِ والجهاد لدى السكان. (Bouamrane & Djidjeli, 2008, p. 249)

3.2 التنوع الثقافي الغائب

ما يؤاخذ على هذه السياسة التعليمية أنها وإن حاولت مواكبة التطوُّر الحاصل على صعيد التقنية المتطوِّرة –خصوصا في جانبها الحربي- فإنَّها أَغفلتْ بعض جوانبها الثقافية وبالأساس تعَلُّم اللغة الفرنسية (لأنها لغة العدوِّ تحديدا ومقتضيات المواجهة المباشرة معه حربا وسلما)، فلَمْ يَرِد أنْ قام الأمير عبد القادر أو خلفاؤه أو حتى بعض أعضاء ديوانه الكبار بتعَلُّم اللغة الفرنسية، وكان طول مدَّة المواجهة يفرض عليه تكوين قِسم من المترجمين العرب، يستطيع بهم الولوج إلى فهم الآخر ويَفْقه حضارتهم، فإن نِصْف النَّصر معرفة عدوِّك أكثر من نفسك، على شاكلة ما فَعَله الفرنسيون بإنشاء هيئةِ المترجمين العسكريين ومِن بعدها المكاتب العربية.

حيث مثَّلَت المكاتبُ العربية مركزَ السلطة الفرنسية لإدارة شؤون الأهالي (الجزائريين) في الأمن والقضاء، وتجد على رأس كلِّ مكتب عربي ضابطاً فرنسياً يَعْرف العربية. (سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، 2016، صفحة 33) وتجد من أعضائها مَنْ لازَم عاصمة الأمير أمثال دوماسDaumas ومنهم من لازَم الأمير نَفسَه أمثال روشRoches استطاعوا بها الولوج إلى أدَقِّ تفاصيل المجتمع الجزائري وعادوا بغنيمة لا تُقدَّر بثمن إلى دولتهم ودوائرهم السياسية.

وكانت النَّواة الأولى لهيئة المترجمين العسكريين أثناء الحملة الفرنسية على مصر، ثم أُلحِقَت بالجيش الفرنسي عشيَّة الحملة على الجزائر، ومَلَأوا معظم الوظائف الإدارية المهمة، وتتوفر في المترجم

الشروط التالية: ذكي، عميق التفكير، موثوق، صاحب خبرة، حس وطني، متمكِّن من لغتين، صاحب نشاط وحيويَّة ويساهم في عقد اتفاقات ورفع تقارير بدقَّة وأمانة.(Féraud, 1876, pp. I-IV)

فاللغة العربية في الجزائر كانت لغة الحديث منذ قرون، ودراستها بطريقة جادَّة يُمْكِن أنْ تقدِّم للفرنسيين فوائد جمَّة، "وذلك بإقامة علاقات عديدة مع الأهالي والتعرُّف أكثر على الشعب، الذي دُعِينا ليس فقط لحُكمه ولكن لإدخاله بالتدرُّج إلى عالَم أفكارنا وحضارتنا". (Cour, Notes sur les chaires de langue arabe d'Alger, de Constantine et d'Oran (1832-1879), 1924, p. 31) وتظهر الرسالة المؤرخة في 25 فيفري 1837 التي بَعث بها المتصرِّف المدني بريسون L'intendant Civil Bresson -وهو أعلى مَنْصب بالمستعمرة بعد الحاكم العام-إلى المفتش العام للتعليم يولي فيها أهمِّيةً بالغة لتَدريس اللغة العربية بين الأوروبيين والعمل على تطويرها، وأنَّ احتلال البلد متوقِّف على المهمَّة التي أوْكَلَتها الحكومة للسيد لويس برينييه Louis Bresnier تَوَلَّى على إثرها كرسيَّ اللغة العربية" Chaire de langue Arabe".(سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، 2016، صفحة 23 وما بعدها) فمُهِمَّته ليسْت عادية، وأمامه مسِيرة مهنية رائعة بإرساء تعليم جديد للغة العربية الدارجة (العامية) ويجب ألا تقتصر على المناطق الساحلية بل تشمل جميع لَهَجَات مناطق الداخل إلى حين تستطيع فرنسا الوصول إليها. (Cour, Notes sur les chaires de langue arabe d'Alger, de Constantine et d'Oran (1832-1879), 1924, pp. 20,33-35)

بالجهة المقابِلة كان الطرف الجزائري بعيداً إنْ لَم نَقُل غائباً عن هذه الرؤية الاستراتيجية، وحتى الأسرى الفرنسيون لدى الأمير لَم يُستغلُّوا في هذا المضمار-صحيح أن الأمير رَفَض رَفْضا قاطعا استغلال الأسرى في الأعمال الشاقة أو السخرة-لكن هذه المهمَّة التعليمية ما كان ليعْتَرِض عليها أحد.

خصوصا وأنَّ معاملة الأمير للأسرى كانت في قمَّة الرُّقِي والتحضُّر، ونَجِد في رسائل أَحَد الأسرى الفرنسيين التوْصيف التالي: "لقد عاملني الأمير بسُمُوٍ أخلاقي رفيع قلَّما نجدُه في الدول الأوروبية الأكثر تحضُّرا.(Bellemare, 1863, p. 328)

وظلَّت قناة الأمير الوحيدة للتَّواصل هي لميلود بن عراش لأنَّه الشخص (الوحيد) الذي تمرَّس على أساليب الفرنسيين، بالاتصالات المباشرة، أكثر من أيِّ شخص عربيٍّ آخر.(العربي، 1978، صفحة 112)وهذا الأخير يقول عنه أبو القاسم سعد الله: كان يعمل بشكل مستقل وأحيانا بطريقة تتناقض ومصالح الأمير.(تشرشل، 2004، صفحة 38) أو بعض المتعاوِنين الأجانب مثل (اليهوديان مانوتشي Manucci وابن دران، الجواسيس الفرنسيين والمتعاملين معهم وخاصة القنصلَين بمعسكر دوماس Daumas ووارنييه Warnier والجاسوسان غارسان Garcin وروشRoches).(سعيدوني، 2012، الصفحات 204-205)إذ لا تتوفَّر فيهم الشروط التي ذكرها شارل فيرو في مقدمة كتابه خصوصا عنصر الثقة، في حين كان هذا الأمر يحتاج إلى جهاز تنفيذي على أعلى مستوى يُنْذَر له كبار العلماء والفقهاء.

فنجد مثلا ليون روش يعلِّق على الرسائل التي كان يترجمها للأمير إلى القادة الفرنسيين: "غلَّفتها بعبارات عاطفية لَمْ يكن لها أيُّ صدى في الواقع، بل كانت على نقيض ما يتجشَّمه الأمير وإرادته، والتزمت بالترجمة الحرفية للنقاط المدرجة، وصِغتها في سياق يعبِّر عن رغباتي الشخصية". لكنه بالمقابل في لقاء بيجو مع رؤساء قبائل بني عامر وكان هذا الأخير يزبد ويرعد ويتوعَّد هؤلاء إنْ همْ استمروا في مناصرة الأمير كانت ترجمته لخطاب الجنرال تلطيفا لأقواله اللاذعة وترضِيَة لرؤساء القبائل وكسْبِهم، ويعقِّب على ذلك بقوله: "للقائد لبُّ الموضوع ولي إخراج شكل الموضوع". (Roches, 1884, pp. 183,227) إن امتلاك لسان أمَّة غربيَّة مِثل فرنسا في ذلك الوقت كانت مَغْنما ثمينا بالقياس على ذاتِيَتِنا التي كانت تجهل كل شيء عن الآخر، كانت بالضرورة تكسب بعدا إضافيا من شأنه أن يسهم في تعميق النقلة النوعية التي جسَّدها الأمير جهادا وسياسية وروحية.(عشراتي، 2011، صفحة 176)

ولحرص فرنسا على بقاء أعيُنِها على الأمير كان من جملة تعليمات الحكومة منعه من تعلُّم اللغة الفرنسية أثناء الأسر.(إتيين، 2001، صفحة 254) وإن كان ذَكَر محمد الشريف ساحلي بقبوله تعلم اللغة الفرنسية بعد الإفراج عنه أراد تكريم الثقافة الفرنسية.(الساحلي، 2008، صفحة 26) غير أن الشواهد تقول غير ذلك فإنَّ لدى السفارة أوامر صارمة لمراقبة جميع أعمال الأمير، ولوحظ وصول بولاد Bullad المترجم العسكري السابق إلى بروسة للالتحاق بخدمة الأمير، وكان يقرأ جميع المراسلات وينقلها إلى الفرنسيين في تقارير شبه يومية إلى السفارة، فالحكومة الفرنسية كانت تشك دائما في توجهاته الجزائرية.(إتيين، 2001، صفحة 279)

فتعلم اللغة الفرنسية ينفي حجَّة وجود مراقب لَصِيق به ومطَّلِع عليه وهو ما كانت تتحاشاه فرنسا قطعا، ويحرمها فرصة أكبر بعد ذلك للتلاعب بخطاباته ورسائله وأقواله، ويبدو هناك مَعْطى آخر مُهِم وواقعي وهو استغراق الأمير في التأمُّل الصوفِي حيث طاب له العيش في كنَفِه، ولا يتَأتَّى له ذلك إلا ضمن لغة الضاد وليس لغة أخرى غريبة عنه.

3. مكتبة الأمير عبد القادر ودورها التربوي

لم يغفل الأمير عبد القادر في توفير المادة العلمية من كتب ومخطوطات يستفيد منها الطلبة وتكون تحت تصرفهم بإنشاء المكتبات. وقد كان شغفه كبير بجمع الكتب منذ شبابه، فذاع في كل الغرب الجزائري إلى ما وراء جبال تلمسان، صِيتُ الشاب المرابط بواد الحمام، الذي يَدْفع مقابل كل مخطوط الثمن الجزيل، فتكوَّنت لديه مكتبة فريدة من نوعها في البلاد.(Étienne, 1994, p. 117) وقد تجمَّعت لديه مكتبة ضخمة وكانت أرواح النُّبوغ ترفرف حوله ولم يكن ليستبدل وجودها معه بكل عروض الدنيا. (بلفراد، 1983، صفحة 72)

وكانت الكتب حينئذ قليلة في البلاد فاجتهد في جَمعها من كل جهة وأمر العسكر بأنَّ كلَّ مَنْ وَجَد كتابا أن يُحْضرَه له، ثم شدَّد في حِفظ الكتب وعَزَم على ترتيب مكتبة في تاقدمت، ولمَّا احتاج إلى

إخلاء المدن جَعَلها في الزمالة، فَتَلفت كلُّها في واقِعة طاقين لمَّا هجم ابن الملك دومال على الزمالة.(الحسني الجزائري م.، 1903، صفحة 202)ويوم وقَعَت زمالته في يد المحتلين وسُلِبت نفائسُها كانت دار النَّسْخ هي أهمَّ ما آلَمَ الأمير، إذ كانت مَرْفقا يشتغل بِنسخ المصاحف ونسخ أمهاتٍ من كتبِ التراث، مثل كتاب الإحياء والموطأ والرسالة وأشباهها من المراجع الفقهية التي كانت تعتمدها البرامج التعليمية.(عشراتي، 2011، صفحة 75)وكم كانت حسرتُه شديدة وهو يلاحِق كتَائبَهم على طريق المدية "لأسْتَعيد الأوراق المُنْتَزَعة من كتب عانَيْتُ المشقَّات في جَمْعها".(إتيين، 2001، الصفحات 163-164)

يقول عنها تشرشل: فيها أنْدَر المخطوطات العربية والتي كانت فخمةَ التجليد، وكانت قيمتُها تقدَّر ب 5000 جنيه استرليني.(تشرشل، 2004، صفحة 276)مرارة هذه الخسارة عبَّر عنها أحَدُ الكتَّاب بأنَّ الجزائر لم تفقد استقلالها في يوم 05 جويلية 1830، إنما فقدت استقلالها بتاريخ 15 ماي 1843 مع سقوط آخر عاصمة للجزائر بسقوط الزمالة والاستيلاء للمرَّة الثانية على الخزينة العمومية الجزائرية وعلى الأرشيفات الوطنية.(بن أشنهو، 2013، الصفحات 186-187)وإن سخريات التاريخ أحيانا لا تَرحم فكان آخر عمل حضاري خَتَم به الاستعمارُ الفرنسي وجودَه بالجزائر في عام 1962 حين قام بعض الفرنسيين ومنهم جامعي من إكس (فرنسا) بإضرام النَّار في مكتبة الجزائر.(إتيين، 2001، صفحة 164)

4. التعليم في الأسر والمنفى

هذه الرسالة التعليمية التي جعلوا منها رسالة ربانية، واجبة عليهم كالصلاة وفي أحلك الظروف، ومع آلام الأسر التي كابدوها بكل كبرياء وبصبرِ أيوب، يداوم الأمير تلك المدَّة –الأسر في أمبواز-على تدريس العلم وإفادة الطلبة من جماعته، يقرأ الصغرى للسنوسي في علم الكلام ورسالة الامام محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه على مذهب الإمام مالك وغيرها من المصنَّفات المفيدة.(الحسني الجزائري م.، 1903، صفحة 17)أصبح الأمير يقيم في أمبواز صالونا أدبيا ودينيا حقيقيا يستقبل فيه أساقفة آخرين، ورجال الدين، حيث تُجرى مناقشات نموذجية.(إتيين، 2001، صفحة 257)ولا يَطلب شيئا لنفسه حتى الحطب الذي نَفذ عنه في عزِّ الشتاء، في حين عندما زاره إسماعيل أوربان Ismail Urbainبلَغه تأمين بعض الكتب من الاسكندرية.(إتيين، 2001، صفحة 265)

وحين نزل بروسة سنة 1853 عكف مباشرة على تعليم أبنائه وإلقاء الدروس بالمسجد فضلا عن مطالعته الدائمة، وتنمية معارفه يستقيها من مكتبته الخاصة التي بدأت بالنمو حوله وأصبحت تحوي فنوناً جديدة. ولمَّا استقرَّ بدمشق سنة 1856 فحياته اليومية كلُّها صارت على ارتباط وثيق بالعلم والمعرفة، وأصبح له قِسم خاص به بمسجدها ضمن جَدْول زمني منتظم. (Churchill, 1971, pp. 304,307) فدراسة العلوم بمثابة الصِّيام، وتدريس العلوم بمثابة الصلاة. (إتيين، 2001، صفحة 47)

ولِنترك تشرشل يحدِّثنا عن كيفيَة ضبط الأمير عبد القادر ساعات يومه بدمشق، يستيقظ باكرا ساعتين قبل الفجر ذاكرا ومتعبِّدا ثم يخرج لصلاة الصبح، ليعود إلى بيته معْتَكفا داخل مكتبته

إلى منتصف النهار، فيخرج لصلاة الظهر بالمسجد حيث تكُون حلقتُه في انتظاره، فيجلس على كرسيه ويفتح الكتاب المخصَّص لدراسته، وبصوت جهوري يبدأ يتدفق، لا يقاطعه إلا استشكالات أو تساؤلات الطلبة، تجِدُ لها أجْوِبة من مَعين لا ينضب لمخزون معرفي متراكم لسنوات الدراسة والبحث، بعد صلاة العصر يعود إلى بيته ليجلس لأبنائه الثمانية يتفقَّد تقدمهم في دراستهم، ليعود إلى المسجد من المغرب إلى العشاء يعطي فيها درسا لمدة ساعة ونصف، لتنتهيَ مهمَّتُه اليومية كأستاذ، لكن مازال أمامه ساعتان يقضيهما في مكتبته قبل أن يخلد للنوم.(Churchill, 1971, p. 321)

وكانت الجراية التي يتقاضاها تجاوز جراية ملوك ذلك العهد إلا أنه مالَ للحياة الثقافية والمجالس العلمية.(البوعبدلي، وثائق أصيلة تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر، 1983، صفحة 147)ثم إنَّنا سنَجِد ثمار هذه الرسالة العلمية، بأن يغدُوَ بعض تلاميذه من المفكرين المهمّين ومتصوفة ورواد النهضة العربية والقوميين مثل أحمد سليمان الخالدي الطرابلسي، أحمد القمشخاناوي، محمد الخاني ابن الشيخ خالد(أسئلته ومناقشاته وملاحظاته مع الأمير عبد القادر ستغدو أساسا لتأليف كتاب المواقف)، والشيخ محمد الطنطاوي.(Étienne, 1994, pp. 277-278)

5. الرسالة التعليمية في مؤلفات الأمير عبد القادر

تَرجَمت مؤلفاتُ الأمير في مُجمَلها هذه النزعة التعليمية، وأبانت في كثير من انعطافاتها عن مَسْلك علمي دقيق لا من حيث الأسلوب أو الموضوعات والتي كانت مَثار جَدَل لدى العلماء والفلاسفة في وقتها سواء لدى المسلمين الذين كانوا يلتمسون سبل النَّهضة بعد مرحلة السكونية إلى درجة العقم، أو لدى مسيحيين إذ صادف لديهم ذروةَ اتِّقادِ العقل الأوروبي الجامح للعلوم والمعارف العقلية بعد أن خرج منتصرا على قيود الكنيسة والحجر الذي سلَّطَته على العقل.

وإن كانت الأحداث التاريخية التي تعاقبت على الأمير قد تمكَّنت من نزع بعض الألقاب من سِجلِّه الحافل؛ فإنها لم تستطع أن تُلغيَ لقبا واحدا وهو رجل الأدب"L'homme de Lettres" وهو اللقب المحبَّب إليه، والذي كرَّس نهايةَ حياتِه من أجل إبرازه والتعبير عنه في مختلف الأعمال التي تخلِّدُ ذكراه. (شرشار، 2003، صفحة 27) ولكن ثروة هائلة من أثاره الفكرية ما زالت لمْ تُدرَس ولمْ تُجمَع وهي رسائله ومراسلاته، وحين يتحَقَّق هذا العمل سَيَجِد الباحثون كنزا قد يُغيّرُ كثيرا من أفكارنا عنه. (تشرشل، 2004، صفحة 52)

1.5 مذكرات الأمير عبد القادر "السيرة الذاتية"

تُعَد وثيقةً تاريخية مهمَّة أنارتْ كثيراً من جوانبٍ غامضةٍ في حياة الأمير عبد القادر والتي تُعْتبر بحقٍّ سيرته الذاتية، في حين تَبقى الفصول الأخرى متنوّعة منها مقتطفات عامَّة عن سيرة الرسول صل الله عليه وسلم وبعض أيام العرب والرُّوم وأخلاق هؤلاء وأولئك وبعض الروايات للأمم الغابرة.

غير أن الأسلوب المتَّبع فلِكُلٍّ رأيه فيه، ففي حينٍ يرى يحي بوعزيز ويتساوق معه عبد المجيد مزيان أن ثقافة مثقَّفي القرن التاسع عشر، عتيقة ومتخلفة تبعا لتخلُّف المجتمع نفسه، طغى عليها

الطابع الديني أكثر من الطابع الأدبي، وكون المؤلفين أثرت فيهم سنوات الحرب الطويلة وأحداثها، وتقلُّباتها، وأنْستْهم أساليب الفصاحة، والبلاغة.(بن التهامي، 2009، الصفحات 11-12)يرى محمد الصغير بناني في مقدمة السيرة أن الأجزاء المشوَّهة بالأخطاء ويَشيعُ فيها التحريف، تدخل ضمن الشكِّ في إمكانية الدَّسِّ من أيادٍ أجنبية إذا عَلِمنا ما كانت تُقْدم عليه المصالح الفرنسية من تزوير لتضليل الأمير والتضليل به، وجهود مخابر الجوسسة والتدليس لتوجيه الرأي العام، ولولا الظروف الصعبة التي عرفها الأمير ورفاقه أثناء اعتقالهم لكان من الصَّعب إيجاد تفسير آخر لتلك الأخطاء.(الأمير عبد القادر، مذكرات، 2007، صفحة 19)

لكن في تقديري من ناحية الموضوع والإخراج أحبكت هذه السيرة ببراعة متناهية، فهذه السيرة جاءت كشعرة الميزان تريد أن تعتدل في ردِّ حقٍّ مُغتصَبٍ لأصحابه، استطاع مصطفى بن تهامي أن يُحْبك هذه المرافعة عن أميره ودينه ووطنه وعن حقِّه في إطلاق سراحه في قالب يبدو ظاهرُه سيرة عادية لأحد أبطال المقاومة، وباطنه تذكيرهم وحتى تقريعهم في أسلوب أدبيٍّ غير مباشر ينبِّههم ولا يثير سخطهم.

وهذا من أدبه وليس من تملُّقه، فقد كان عاذرا لأعدائه متغافلا عن إساءتهم لا ينطق في جهتهم. (الحسني الجزائري م.، 1903، صفحة 13) وكأني بالأمير يصدح فيهم هذه سيرتي فيكم وسيرة نبينا الأعظم وقومي، بلغة الإشارة والرمز، فلتكنوا أنتم على عهد المسيحيين السابقين وتوفوا بذمَّتكم لي كما وفَّاها من سَبَقكم، لِتُثير رجَّة في الأوساط الصحافية والسياسية.

2.5 المواقف

يُعَدُّ اجتهاداً علمياً في تفسير آيات الكتاب المبين على نحوٍ مغايرٍ وضمن رؤية اجتهادية تستخرج كنوز القرآن الكريم ألَّفَه بالمشرق وضمَّه ثلاثمائة واثنين وسبعين (372) "موقفا" يقول عنها "هذه نفثات روحية، وإلقاءات سبوحية، بعلوم وهبية، وأسرار غيبية، من وراء طَوْر العقول، وظواهر النقول، خارجة عن أنواع الاكتساب، والنظر في كتاب".(الأمير عبد القادر، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، 2004، صفحة 27)فالأمير لم يكن صوفيا فقط، بل كان قبل ذلك عالما وفقيها محدِّثا، له مكانته العلمية بين أعلام عصره.(العلاوي، 2014، الصفحات 71-72) إن ما يرفع من شأن الأمير حقيقة ليس أنه فقيه بسيط، ولكن عارف حقيقي وملهم، الذي يقبل إعادة فتح أبواب التفسير والتأويل. (Étienne, 1994, p. 372)

ويجلي هذه الرسالة التعليمية في المواقف، عبد المجيد الخاني حين يقول: "فمِن آثاره الدَّالة على جلالة مقداره كتاب (المواقف العرفانية) الجدير بأن يُكتب بالنُّور على نحور الحور، وهو كتاب جليل من توفيقات توقيفاته الإلهية، وواردات مشاهداته الربانية، وتفسير الآيات الكريمة والأحاديث النبوية، وأجوبَة الأسئلة الإخوانية التي كانت تَرِد إليه من كلِّ ذائق في علم الحقائق"، بل يذهب بعيدا حين يُورِد أنَّ ما كان يقيِّده الأمير يرسل به إلى والده (أي والد عبد المجيد الخاني الذي كان يسائل

ويراجع الأمير في كثير من المسائل الخفية في الفتوحات المكية وغيرها) حتى اجتمع من ذلك ثلاث مجلدات ضخمة.(الخاني، 1996، صفحة 774)

عمد الأمير إلى عدم مطاوعة كثير من علماء زمانه في تعامله مع الكتاب الذي جاء يغيّر من شأن العالمين وعلى نحو مستمرٍ إلى الأحسن والأفضل ليجعل منهم خلائف في الأرض، بات مجرَّد حِزب راتِب، يُرتَّل لتأدية فرائض ابتَعَدَت عن مقاصدها وسُوَرا يُشيَّع بها الموتى إلى قبورهم، وطلاسم تُمارَس بها شعوذة ما أنزل الله بها من سلطان. (عشراتي، 2011، الصفحات 114-115)

والثابت أن الأمير عبد القادر سلك مَسلك أهل العلم، فعمد سنة 1287هـ/1870م بإرسال الشيخ الطيب بن الشيخ المبارك مع حضرة شيخنا الطنطاوي إلى مدينة قونية لمقابلة الفتوحات المكية على خط مؤلفها العارف بالله الشيخ محي الدين بن العربي لرفع الشك والالتباس.(البيطار، 1993، صفحة 757) وهو النهج الذي سار عليه علماء الإسلام، فنجد مثلا ابن القيم في كتابه "مدارج السالكين" الذي شرح فيه كتاب أبي إسماعيل الهروي "منازل السائرين" كان يعتذر له ويؤَوِّله بحيث ينفي عنه عقيدة وِحْدة الوجود، وحُجَّته أنَّه مِنْ أهل الدين والصلاح ولا يُتَصوَّر أنْ يتكلَّم بخلاف الشرع، وهذا هو عَيْن ما فعله الأمير عبد القادر مع شيخه ابن العربي.(العلاوي، 2014، صفحة 54)

وقد تميَّزت المواقف بمُستواها الثقافي والمعرفي الشمولي، فقد بدا الأمير وهو يتناول النصوص القدسية (القرآن) على ثقافة مستبحرة، تهيَّأت لأنْ تَغْدُوَ رُؤيَة اجتهادية متماسكة.(عشراتي، 2011، صفحة 224) فمؤلَّفه الضخم "المواقف" يعزِّز هذه النَّزعة، فمراميه كانت تعليمية، توصيلية، قبل أن تكون أي شيء آخر، ولا عجب في ذلك، فمدوَّنة المواقف بهذا الاعتبار دروس استوعبت الثقافة الإسلامية التي تأصَّلت منها معرفة فكرية وروحية، وصبَّ لها في وعاء التجديد، من خلال ربط العرفان بالشرع وإزالة الهوَّة بين الحقيقة والشريعة.(عشراتي، 2011، الصفحات 222-227)

3.5 ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

نرى الأمير هنا وكأنه يقعِّد لمناهج علمية، حين يجعل في تقديمه أن العاقل ينظر في القول، ولا ينظر إلى قائله، والكلمة من الحكمة؛ ضالَّة العاقل، ويشدّد على المقلِّدين دون غيرهم بأن جعل: "بهيمة تُقادُ أفضل من مقلِّد يَنقاد". كَوْنهم أهلكوا أنفُسهم وأهلكوا غيرَهم على نَسَق ما روى القرآن "قَالوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابآءنا أو لو كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمُ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ".

ولا يُفاضل الأمير بين الناس إلا على أساس واحد، شُرِّف به الإنسان على جميع الموجودات، هو العلم، وبه كماله، فهذه الخصوصية أعطَتْه صِفة (الكامل)، فكان العلم عنده هو كمال الإنسان، وأن لا لذّة فوق لذّته، لأنها لذَّة روحانية محلُّها القلب وهي أقلَّ اللذات وجودا، وهي أشرف اللذات.(الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، 2004، الصفحات 37-40) ويجعل الأمير من العلوم كل العلوم مكمِّلة لبعضها البعض، فالعقل وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ، فثَمّ علوم لا يَصِل إليها، ولا يهتدى إلى الاطلاع عليها، إلا بتصديق الأنبياء، وإتّباعهم. فمن رضيَ واكتفى

بالعلوم العقلية، عن العلوم الشرعية، فهو مغرور، ويشبِّه العلوم العقلية بالغذاء والعلوم الشرعية بالدواء، ولا يستغني أحدهما عن الآخر. (الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، 2004، صفحة 77،79،85)

ويختم بلفتة جميلة كما بدأها أوَّل مرَّة حين ذمَّ التقليد عملا بِقَول ما ترك الأوَّلُ للآخر شيئا، وهذا خطأ والقول الصحيح كمْ تَرَك الأوَّل للآخر، فالعلم والعقل لا نهاية لهما كالبحر الزاخر، والفيض الإلهي، ليس له انقطاع، ولا آخر. (الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، 2004، صفحة 112،115،129) فكم دُرَرٌ مكنونة اكتشفها المتأخِّرون وتجاوزت المتقدِّمين. فالأمير عبد القادر يوبّخ ازدراء البعض للأعمال العلمية الحديثة بحُكم أنَّها جديدة، ويتشبَّث بالقديم منه دون غيره، فهذا القديم كان جديدا في وقته، والجديد سيصبح يوما ما قديماً، فنهضة البشرية وكمالية الإنسان، تجد لها دائما صدى في كتابات الأمير عبد القادر.(Sahraoui, 2011, p. 112)

والرسالة بصورة عامة إسهام من الأمير عبد القادر في الأبحاث الفلسفية على عهده، وقد أصدرها في وقت كانت فيه مباحث معاصريه من أعلام الفكر لا تخرج عن دائرة الأبحاث الدينية والأدبية وغيرها. عدها رابح بونار "درَّة في الأدب النثري بالجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، ترفع من إنتاجنا الفكري وتسبغ عليه هالة من الجلال، وتستحق منا كل عناية واهتمام". (شرشار، 2003، صفحة 21)

4.5 المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد

ألزم الأمير عبد القادر نفسه الذَّبَّ عن دين الله ورسالة نبيه كلَّ ما يشوبُها من تشويه مقصود وغير مقصود من أبنائه وأعدائه على حد سواء، الأوائل بما رسَّخُوا من تقاليد وعادات متوارثة حادت بالشريعة عن الطريق القويم، وجَدَ فيها الآخر مَنفَذا للانتقاص من دين الله وشريعة محمد صل الله عليه وسلم.

تقول عنها الأميرة بديعة الحسني الجزائري المُحَقِّقة لهذه الرسالة، أراد تضمينَها كلَّ هذه الأسُس في الدستور الإلهي القرآن، تَحْمل في طيَّاتها حضارة مناقضة لحضارتهم التي بُنِيَت على تقديس كلِّ ما هو مادي، وبخطف لقمة العيش من أفواه الأضعف منهم من الشعوب الأخرى، ونظريات مفكريهم لم تكن تتعدَّى المصالح الذاتية لبلادهم الأوروبية. (الحسني الجزائري ا.، 2012، الصفحات 149-150)

فما نُسب للمسلمين من الاتكالية وعدم الأخذ بالأسباب، وهي ظاهرة لم تكن غائبة عن فكر الأمير قيَّدَت الثقافة الإسلامية وجعلتها ترسو عند محطة السكونية والتسليم، وكرَّست التوكل وروحا من العقم خالفت سنن الله القاضية بأن القدر لا يغيِّرُ ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.(عشراتي، 2011، صفحة 32)إن عبادة الجهد هذه التي تُصوِّرها حياة عبد القادر تُقْصي القدريَّة والترقُّب، وظل وفيًّا إلى روح الإسلام الأصيلة، فليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرِّسين ومعلِّمي الصناعات، لكن الدين يشجِّع البحث العلمي ولا يُعِيقه، وأنَّه من باب الإنصاف أن نتوسَّم في الأمير الرائد العبقري

لكبار المصلحين الذين يصدر عنهم الرأي العام المتبصِّر للعالم الإسلامي، وموقف الإسلام إزاء العلم أكثر ليبرالية من موقف المسيحية.(الساحلي، 2008، الصفحات 32، 46-47)

فالإنسان الغربي يجهد من أجل أن يُسعد ويُديم سعادتَه، فيتّجِه لامتلاك أسباب القوة والاقتدار، هدفُه أن يحْي رَخيا، بالمقابل ابتعد المسلمون عن جوهر الدين الحنيف عبر الزمن وروح الرضى السلبي غير المبرر والقناعة الزرية والتكفف الشنيع، غير مدركين لِمَا بين أيديهم من كنوز حواها قرآنهم العظيم. (عشراتي، 2011، الصفحات 282-284) وحتى ما يؤاخذُ عليه الأمير من تفسيرِ بعضِ الظواهر الطبيعية غير أنها لا تُنقِص من قيمة مساهمته فالاكتشافات العلمية في الكون والإنسان دائما في تطوُّر مستمر عبر الزمن وهو ما حاولتْ الإشارة إليه الأميرة بديعة الحسني الجزائري في تحقيقها لهذه الرسالة "المقراض الحاد". (الحسني الجزائري ا.، 2012، الصفحات 90-94)

وهذه الرسالة "المقراض الحاد" جاءت لتقول أنَّ الشعب الجزائري يملك حضارة إلهية عريقة لا تُقارن بحضارتهم الوضعية الهجينة التي يريدون فرضها بالقوة على شعبه بحجة إنقاذه من التخلف والتوحُّش، متناسِين ذلك النَّبع من العلوم لعلماء المسلمين الذين اكتشفوا واخترعوا وبرعوا بعلوم كثيرة، وكانت جسرا امتد قبل قرون من طليطلة إلى أوروبا. (الحسني الجزائري ا.، 2012، الصفحات 152-154)

5.5 الأمير عبد القادر شاعرا

فهذا الفن المنظوم برع فيه الأمير عبد القادر وسجل لنا منه صنوفا وألوانا وكأنه يتمثل البيت الشعري:

إذا جهلت مكان الشعر من شرف فأي مفخرة أبقيت للعرب؟!

فضلا أن الأشعار تعتبر شواهد تضمن أصالة ما تحفظه لنا على شكل قوالب شعرية موزونة تفوق ما يفعله النثر، لسهولة رسوخها في ذاكرة العوام ولصعوبة التلاعب بمفرداتها وصِيَغها كذلك، وتتناقل الرُّكبان الأشعار إلى أقاصي البلاد العربية وبسرعة مذهلة ولها تأثير حازم على عقول الناس، فهي تُعتبَر كالصحافة في يومنا هذا. (Cour, La Poésie Populaire Politique Au Temps de L'émir Abdelqader, 1918, pp. 458-459)

وقد عمد الأستاذ "محمد بشير بويجرة" من خلال اقتراح موازنة بين الأمير والبارودي بإمكانية تقدُّم الأمير لشقِّ الممرَّات الأولى للحداثة والمعاصرة في الشعر العربي، خلص فيها أن عناصر إحياء الحداثة والمعاصرة جميعها يمكن تلمُّسها في شعر الأمير، وهو ما جعله يُعنْوِن كتابه "الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث". (بويجرة، 2009، الصفحات 177-178)

واستطاع أن يجمع بين الأصالة والتجديد في شعره، وهو حُكم كثير من النقاد، مثل الدكتورة نور سليمان في كتابها "الأدب الجزائري" تقول: كان شعر الأمير عبد القادر، أمير السيف والقلم، أكثر متانة من شعر معاصريه نظرا لثقافته الدينية والفقهية. (صيام، 1983، صفحة 295) ويَعضُد هذا

القول الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي إذ يقول: حين نقرأ شعر الأمير عبد القادر نتذكر معه البارودي، كلاهما فارس وكلاهما شاعر. (بويجرة، 2009، الصفحات 6-7)

ونافح الأمير عبد القادر في قصيدته "ما في البداوة من عيب" عن نمط عيش قومه ونصرتهم له. وقد قام مارك أرنودMarc Arnaudبترجمتها إلى الفرنسية، إشارة إلى تتبع الفرنسيين لكل منتوج فكري كان يصدُر عن الأمير.(Arnaud, 1861, pp. 314-316) أما قصيدته "الباذلون نفوسهم" فعُدَّت "معلقة الجزائر"، في القرن التاسع عشر على الأقل. (مرتاض، 2009، صفحة 168)

أما عن متانة الشعر وسلامته، فإنك تجد فحول الشعراء ما عُصِموا من الزَّلل ولا سَلمُوا من الغلط، مع ذلك لم يكن أحدٌ من متقدم أو متأخر في خطئه ولا سهْوِه وغلطه مجهولَ الحق ولا بمجحود الفضل. (بويجرة، 2009، الصفحات 201-202) فالشّعر لدى الأمير وبغضِّ الطرف عن درجة المستوى الفنيّ والجماليّ الذي قد يكون في بعض أطواره محدودا، فإننا نحسّ أنّنا نقرأ شعرا جزائرياً حقاً؛ فهو حافل بالنَّخوة، نضّاح بالعزّة، نضاّخ بالقوة، إذ لا سواء من يتغنىّ بالكلام من أجل الكلام؛ ومن يتغنَّى بالفِعال في الكلام! فالمقاومة لديه مركبة تتّخذ لها أبعاداً، ولم نصادف شاعراً جزائرياً في القرنَين الماضيَيْن على الأقلّ، بلغ المستوى الأعلى من المسؤولية السياسية والعسكرية كالأمير عبد القادر. (مرتاض، 2009، صفحة 168،174)

الخاتمة:

كشف لنا هذا البحث عن جهاد معرفي خاضه الأمير عبد القادر مستوحى من تجربته التي عاشها بتوجيه من أبيه بمعهد القيطنة، أرسى دعائمها ضمن مشروعه التعليمي في دولته، وهي لا تقل أهمية عن مجمل إنجازاته العسكرية والسياسية. بخَلق ذاكرة جمعية جزائرية إسلامية توحِّد المجتمع في سياق المواجهة مع فلول قوة الغرب الزاحفة.

ونستنتج أن رؤية ألأمير للتعليم أصبحت مغايرة ومتجدِّدة عن العهد العثماني بما استحدثه من هياكل جديدة (مدارس ومكتبات) ومناهج دراسية مبتكرة تواكب التطور التكنولوجي الحاصل في أوروبا في المجال العسكري، غير أنها أغفلت جانبا مهمًّا بتعليم اللغة الفرنسية ومقتضيات المواجهة المباشرة مع العدو حربا وسلما تفرض تكوين قسم من المترجمين العرب يستطيع بهم الولوج إلى فهم الآخر.

الرسالة التعليمية ما انفك يمارسها منذ أن كان طالبا بالقيطنة، واستمر عليها وهو أمير بين جنوده ورعيته، وحتى في أسره، وحين استقراره بالمشرق ضبط ساعات يومه على هذه الرسالة النبيلة. وتَرجمتْ مؤلفاته هذه النزعة التعليمية برؤية اجتهادية تفسيرية للقرآن الكريم، سلك فيها الأمير مسلك أهل العلم في تحقيق النسخ، وذمّ التقليد ونفي الاتكالية عن الإسلام والمسلمين، ونافح عن حضارة الشعب الجزائري العريقة شعرا ونثرا.

Bibliographie

1. Arnaud, M. (1861, Janvier). Traduction d'une poésie d'Ab-el-kader. *Revue Africaine*, pp. 314-316.

2. Bahloul, M. (2011). L'Emir Abd-el-kader face aux Catégorie de la Modernité Occidentale. Dans F. E. Abdelkader, L'Emir Abdelkader Source d'Authencité...Précurceur de Modernité (pp. 41-55). Alger: ENAG Editions.

3. Bellemare, A. (1863). Abdelkader sa vie politique et militaire. Paris: Hachette et cie.

4. Bouamrane, C., & Djidjeli, M. (2008). L'Algérie coloniale par les textes (1830-1962). Alger: ANEP.

5. Churchill, C.-H. (1971). La Vie de Abd-el-kader. (M. Habart, Trad.) Alger: SNED.

6. Cour, A. (1918). La Poésie Populaire Politique Au Temps de L'émir Abdelqader. *Revue Africaine*, pp. 458-493.

7. Cour, A. (1924). Notes sur les chaires de langue arabe d'Alger, de Constantine et d'Oran (1832-1879). Revue Africaine*, 65*, pp. 20-64.

8. Desjobert, A. (1837). La Question d'Alger. Paris: P Dufart Libraire.

9. Desjobert, A. (1838). L'Algérie en 1838. Paris: La librairie de P Dufart.

10. Emerit, M. (1951). L'Algérie à l'époque d'Abd-el-kader. Paris: Editions Larose.

11. Étienne, B. (1994). Abdelkader Isthme des isthmes (Barzakh al-barazikh). Paris: Hachette Livre.

12. Féraud, C.-L. (1876). Les Interprètes de l'Armée d'Afrique. Alger: A Jourdan Libraire-éditeur.

13. Pellissier de Reynaud, E. (1854). Annales Algériennes. Alger: Librairie Bastide.

14. Roches, L. (1884). Dix ans à travers l'islam 1834-1844. Paris: Librairie académique didier.

15. Sahraoui, A. (2011). Elément de la pensée humaniste de l'Emir Abd-el-Kader. Dans F. E. Abdelkader, L'Emir Abdelkader source d'Authenticité...précurseur de Modernité (pp. 106-117). Alger: ENAG Editions.

16. أبو القاسم سعد الله. (1982). محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الاحتلال". الجزائر: الشركة الوطنية لنشر والتوزيع.

17. أبو القاسم سعد الله. (2016). أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر (المجلد 4). الجزائر: عالم المعرفة.

18. أبي عبد الله البخاري. (2003). صحيح البخاري. القاهرة: مكتبة الصفا.

19. أحمد بن داود. (جويلية, 2014). المقاومة الثقافية للأمير عبد القادر من خلال التعليم. *مجلة عصور الجديدة*، الصفحات 218-226.

20. أحمد فارس العلاوي. (2014). الأميرالجزائري في دمشق. الجزائر: دار كنوز.

21. احميدة عميراوي. (25-26 ماي, 2005). الأمير عبد القادر والذاكرة الجمعية الجزائرية. تأليف مؤسسة الأمير عبد القادر، الأمير عبد القادر واجب الذاكرة وتحديات الساعة (الصفحات 35-53). الجزائر، الجزائر: منشورات ثالة -الأبيار.

22. إسماعيل العربي. (جويلية, 1978). سفارة ميلود بن عراش لدى الملك لويس فليب (خلفيتها ونتائجها). *مجلة التاريخ*، الصفحات 101-129.

23. الأميرة بديعة الحسني الجزائري. (2012). الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره (المجلد 3). (أبو القاسم سعد الله، المترجمون) الجزائر: دار الوعي.

24. الجزائري الأمير عبد القادر. (2004). المواقف الروحية والفيوضات السبوحية. لبنان: دار الكتب العلمية.

25. الجزائري الأمير عبد القادر. (2004). ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.

26. الجزائري الأمير عبد القادر. (2007). *مذكرات*. الجزائر: دار الأمة.

27. الحاج مصطفى بن التهامي. (2009). سيرة الأمير عبد القادر وجهاده. الجزائر: دار البصائر.

28. المأمون القاسمي. (2011). الطريقة الرحمانية. تأليف تأليف جماعي، *الحياة الروحية للأمير عبد القادر* (الصفحات 59-76). الجزائر: موفم للنشر.

29. برونو إتيين. (2001). عبد القدر الجزائري. الجزائر: Anep.

30. دحو فغرور، و آخرون. (2016). *فلسفة المقاومة*. الجزائر: الأمال للطباعة والنشر والتوزيع.

31. زكرياء عبد الرحمن صيام. (ماي-جوان, 1983). الأصالة والتجديد في شعر الأمير عبد القادر. *مجلة الثقافة*، الصفحات 219-301.

32. سليمان عشراتي. (2011). *الأمير عبد القادر المفكر*. الجزائر: دار القدس العربي للنشر والتوزيع.

33. شارل هنري تشرشل. (2004). حياة الأمير عبد القادر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

34. عبد الحميد بن أشنهو. (2013). *الدولة الجزائرية في 1830 مؤسساتها في عهد الأمير عبد القادر*. (نور الدين لعراجي، المترجمون) الجزائر: موفم للنشر.

35. عبد الرزاق البيطار. (1993). حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. بيروت: دار صادر.

36. عبد القادر شرشار. (جانفي-جوان, 2003). شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر، ترجمة كتاب عبد القادر لقوستاف دوقا أنموذجا. إنسانيات، الصفحات 19-31.

37. عبد المالك مرتاض. (2009). أدب المقاومة الوطنية في الجزائر. الجزائر: دار هومة.

38. عبد المجيد الخاني. (1996). *الكواكب الدرية على الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية*. دمشق: دار البيروني.

39. محمد ابن الأمير الحسني الجزائري. (1903). تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر. الإسكندرية: المطبعة التجارية.

40. محمد الشريف الساحلي. (2008). الأمير عبد القادر فارس الإيمان. الجزائر: Anep.

41. محمد الصغير بناني. (1986). معالم شخصية الأمير عبد القادر من خلال شعره (معالم فكره السياسي). *الثقافة*.

42. محمد بشير بويجرة. (2009). الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث. الجزائر: منشورات دار القدس العربي.

43. محمد بلفراد. (1983). الجانب الصوفي والثقافي في حياة الأمير عبد القادر الجزائري. *مجلة التاريخ*، الصفحات 49-79.

44. محمد طيبي. (2000). الدراية المعرفية والتدبير السياسي: قراءة في الارهاصات الجيوسياسية للفكر الأميري. تأليف تأليف جماعي، تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر (الصفحات 59-100). الجزائر: دار القدس العربي.

45. مهدي البوعبدلي. (1975). أضواء على تاريخ حياة الأمير عبد القادر قبل توليته من خلال مذكراته التي سجلها في قصر أمبواز. *مجلة التاريخ*، الصفحات 51-68.

46. مهدي البوعبدلي. (ماي-جوان, 1983). وثائق أصيلة تلقي أضواء على حياة الأمير عبد القادر. *مجلة الثقافة*، الصفحات 133-151.

47. ناصر الدين سعيدوني. (2012). عالم القرن التاسع عشر عصر الأمير عبد القادر. الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع.